

الى الدكتور طه حسين من الاستاذ توفيق الحكيم

باركتور :

يعنيك طبعاً أن تعلم كيف يرى الجيل الجديد عملك وعمل أصحابك ، إن رسالتى إليك ليست حكماً يصدره الجيل الجديد ، إنما هى تفسير لذلك العمل ، لك أن تقره ولك أن تنكره . لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم تحت عصاك السحرية ، كيف تغيرت ؟ هذا هو موضوع الكلام ، إن شئون الفكر فى مصر حتى قبيل ظهور جيلك كانت قاصرة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربى وتقليده ، كنا فى شبه إغماء ، لا شعور لنا بالذات ، لا نرى أنفسنا ولكن نرى العرب الغابرين ، لا نحس بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم هم ، لم تكن كلمة « أنا » معروفة للعقل المصرى . لم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد . رجل واحد لمعت فى نفسه تلك الفكرة فاضاء لكم الطريق : « لطيف بك السيد » ، وسترتم ركضاً حتى بلغتكم اليوم هذه الغاية ، وإذا الجيل الجديد أمام روح جديدة وأمام عمل جديد ، لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم فى روحه وشكله ، وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما العرب ، وبدت الذاتية المصرية واضحة لا فى روح الكتابة وحدها بل فى الأسلوب واللغة أيضاً ، من ذا يستطيع أن يرد أسلوب طه حسين الى أصل عربى قديم ؟ بون شاسع بين الأمس واليوم ، حتى أمس القريب كانت مقامات الحريرى ورسائل عبد الحميد وبديع الزمان مثلاً تحتذى فى كتابات حفنى ناصف والمويلحى وغيرهما بمن رسفوا فى أغلال التقليد راضين أو مرغمين ، لقد بدأنا نعى ونحس بوجودنا ، وأول مظاهر الوعى شخصية الأسلوب واستقلال طريقة التعبير وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة ، بهذا يبشر صاحبكم أحمد أمين اليوم ، ويصبح فى هذا الجيل كى ينظر فيما حوله ويعبر عما يراه بخياله هو لا بخيال العرب . كل هذا جلى معروف ، ولم أبعث برسالتى من أجله ، حاجة مصر الى الاستقلال الفكرى أمر لا نزاع اليوم فيه ، وعملك أنت وأصحابك لهذا الاستقلال أمر لا نزاع فيه أيضاً . ولقد مضى كلامكم فى هذا ، إنما الأمر الذى يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصرى . معرفة أنفسنا : حتى تبين لجيلنا

مهمته . هذه هى المسألة ، لقد فهمنا عنكم مميزات الأسلوب والشكل ، وما فهمنا بعد جيداً مميزات النفس والروح ، ما هى مميزات العقلية المصرية فى الماضى والحاضر والمستقبل ؟ ما روح مصر ؟ ما مصر ؟ إن اختلاطاً بالروح العربية هذا الاختلاط العجيب كاد ينسينا أن لنا روحاً خاصة تنبض نبضات ضعيفة تثقل تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة . وإن أول واجب عليكم لنا استخراج أحد العنصرين من الآخر . حتى إذا ماتم تمييز الروحين لإحدهما من الأخرى كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما ، وبأن لكم أن تقولوا لنا : « ها نحن أولاد » قد أنزلناكم الطريق إلى أنفسكم فسيروا ، لا بد لنا إذن أن نعرف ما المصرى وما العربى ؟ هذا السؤال ألقىته على نفسى منذ ست سنوات إذ كنت أدرس الفين المصرى والأغريق . وكانت المسألة عندى وقتئذ : ما المصرى وما الأغريق ؟ وأذكر أنى أثرت هذه المسألة أمام بعض أصدقائى فى حى « موبارناس » ، وأذكر أنى لخصت لهم الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت سائلاً : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستوية الأجساد وعند الأغريق عارية الأجساد ؟ هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، نعم كل شىء مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الأغريق ، كل شىء فى مصر خفى كالروح ، وكل شىء عند الأغريق عار كالمادة . كل شىء عند المصريين مستتر كالنفس ، وكل شىء عند الأغريق جلى كالمنطق ، فى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة والعقل . نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام ، إن التمثال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هى شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة ، إنه يستنطق الحجر كلاماً وأفكاراً وعقائد . على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى ، يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال ، يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شىء بكل شىء ، يشعر بالكل فى الجزء ، وبالجزء فى الكل ، وتلك أولى علامات الوعى فى الخلق والبناء ؛ هذا كله يحسه الفنان المصرى لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة ، فان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن . إنه يريد أن يصور روح الأشكال لأجسامها ، وما روح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه ؛ إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض إلهى ، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون ! كل شىء فى مصر إلهى ، لأن مصر التى منحها الطبيعة الخير واليسر

وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد في سبيل المادة استلقت منذ الأزل تأمل ما وراء المادة... حظها في هذا حظ الهند: أمة كثيرة الخير كذلك دانية القطوف لا حاجة بها إلى الكفاح ولا عمل لها إلا استمرار ترف الحكمة العليا، انقطعت هي أيضاً من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة.

مصر والهند حضارتان قامتتا على الروح لأنهما قد شبعتا من المادة، الأغريق على النقيض، أمة لم تشبع من المادة، أمة نشأت في العسر والفاقة، أرضها لا تدر من الخير إلا قليلاً، كانت لزماً عليها الكفاح في سبيل العيش، وكان حتماً عليها الجري وراء المادة، حرب تلو حرب، وفتح بعد فتح، وضرب في مشارق الأرض ومغاربها، على هذا النحو لم يكن للأغريق ذلك الضمير المطمئن ولا ذلك الشعور بالاستقرار، ولا ذلك الإيمان بالأرض الذي يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة، إن عاطفة الاستقرار والإيمان عند المصريين مزوجة بالدم، لأن المصريين نزّلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق، واختلاف العلماء في أمر أصلهم لم ينته بعد، وفي كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا في مصر قبل التاريخ المعروف، ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة، كما يظهر قرص الشمس في الأفق عند الشروق، ولقد قال سولون: إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدينة الزاهرة التي ابتلعها المحيط قبل مبدأ التواريخ: «قارة الاندلتيد». أترى كانت الحضارة المصرية استمراراً لتلك المدينة المندثرة؟... لم يبق دليل، على كل فرض، مصر أمة مستقرة مؤمنة زهدها عمرها الطويل وخيرها الكثير في مبادئ الحياة، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصري، ولا شيء يدل على عواطف أمة وعلي عقليتها مثل فنّها. فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصري الصرامة والجدة والعمق، ولا أكاد أفتح كتاباً في الفن المصري حتى أجد كلمة «الصرامة» نعتاً من نعوت هذا الفن، ولا أفتح كتاباً في الفن الأغريقي إلا وجدت كلمة «الحياة» وكلمة «الإنسانية» من نعوت هذا الفن، نعم. الحياة هي كل شيء عند الأغريق، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلسوفها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح. فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة، فلسفة الحركة. لا فلسفة السكون، عند مصر والهند السكون، وعند الأغريق الحركة، فرأت حديثاً «المقبرة البحرية» لـ «بول فاليري» وهو المتصل اتصالاً مباشراً

الفلسفة اليونانية. فإذا هو يشير في قصيدة إلى الحركة والسكون، وإذا الحركة عنده من خصائص الكينونة الواعية الفانية، والسكون من خصائص العدم الخالد غير الواعي، وهو يعارض زينون الألياني في إنكاره للحركة. ويتغنى في آخر القصيدة بانتصار الحركة أي الحياة على قصرها وفنائها، فهو في ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة. ولم يفهم في رأي روح مصر والهند، ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعي، كان دون هذا الإشراف والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمي أو منطق بشري، هذه هي الصعوبة في فهم مصر والهند، وهذا ما جعل الفن المصري سرّاً مغلقاً حتى أوائل هذا القرن، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها، فهي واضحة المعنى يسيرة المنال. لأنها ألزمت شاطئ الحياة. حظ الأغريق في كل هذا حظ العرب. العرب أيضاً أمة نشأت في فقر لم تعرفه أمة غيرها، صحراء قفر، قليل من الماء يثير الحرب والدماء، جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة، أمة لاقت الحرمان وجهاً لوجه، وما عرفت طيب الثمار وجري الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا في السير والأخبار، كان حتماً عليها ألا تحس المثل الأعلى في غير الحياة الهنيئة، والجنات الخضراء، والماء الجاري، وألوان النعيم والذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي، أمة بأسرها حلت بلذة الحياة ولذة الشبع، فأعطاهم ربها اللذة ومنحها الشبع، كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة، لذة سريعة منهومة محتطفة اختطافاً، لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف، عند الأغريق الحركة، أي الحياة، وعند العرب السرعة، أي اللذة. لم تفتح أمة العالم بأسرع من العرب، ومر العرب بحضارات مختلفة فاخطفوا من أطايبها اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد، كل شيء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار، وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشأ الأرض، وحيث لا أرض فلا استقرار، وحيث لا استقرار فلا تأمل، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا إحساس بالبناء، لهذا السبب لم تعرف العرب البناء، سواء في العمارة أو في الأدب أو في النقد، الأسلوب العربي في العمارة من أوهي أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن، وإذا عاش لليوم قائماً يعيش بالزخرف، فن الزخرف العربي أنقى العمارة العربية، إن العمارة العربية — إلا في مصر — ماهي في رأي سوى زخرف لا بناء، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة

عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة ،
 إنما هي وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يهز البصر ولا
 فكر خلفه . أما فن الزخرف العربي فهو في الحق أجمل وأعجب فن
 للزخرف خـلده التاريخ . والزخرف عند العرب وليد
 ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شيء عند العرب زخرف . الأدب
 نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ،
 إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس ، فسيفساء اللفظ . والمعنى ،
 و « آرابسك » العبارات والجل . كل مقامة للحريرى كأنها
 باب لجامع المؤيد ، تقطيع هندسى بديع . وتطعيم بالذهب والفضة
 لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنخ مأخوذاً بالبهرج الخلاب .
 كذلك الغناء العربي « آرابسك » ، صوتي ، فلا مجموعة أصوات
 متسقة البناء كما في « الديتيرامب » ، أو « الأوركسترا » الأغريقية
 أو كما في « الكورس » ، الجنائزى المصري ، ولا حتى مجرد صوت
 ينطلق حراً بسيطاً مستقيماً . إنما هو صوت يحمل بألوان المحسنات
 من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم كأنها (ستالاكتيات)
 غرناطية ، لا يكاد يسمعه (القاضي الفاضل) حتى يستخفه
 الطرب ويضع نعله فوق رأسه ؛ كان هذا في العهد الأول للموسيقى
 إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية تخرج من القلب
 تعبيراً عما في القلب ، أو رمزا لفكرة من الأفكار ، والموسيقى
 كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب
 لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي ، ولا يريدون
 إلا التعبير المباشر بغير رموز ، وإلا الصلة المباشرة بالحس ،
 فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل ، كما جعلوا
 العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل ، ولقد حاول الفارابي فيما
 أذكر التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الأغريقية ،
 وكان لا بد له من الاختفاق لأسباب قد أذكرها بعد ،
 كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين
 وزخرف للكتب والمخطوطات ولم يؤد لغير تلك الغاية
 « المنياتور » الفارسي . قد يكون للدين دخل في تأخر النحت
 والتصوير عند العرب ، غير أنى اعتقد براءة الدين ، ان العرب
 كانوا دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ،
 لقد حرم الدين الشراب ، فأحلوا هم الشراب في قصور الخلفاء ، وما
 وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة بأحسن مما وصفت في
 الأدب العربي ، لا شيء في الأرض ولا في السماء يستطيع أن يحول
 بينهم وبين اللذة ، أما النحت أو التصوير الكبير فليس في طبيعتهم ،
 لأن تلك فنون تتطلب فيمن يزاوها إحساساً عميقاً بالتناسق العام

من سافقونية يبتوفن : نغم سريع مفرح لذيذ !!
 لا ريب عندي أن مصر والعرب طرفاً تقيض : مصر هي
 الروح ، هي السكون ، هي الاستقرار ، هي البناء ، والعرب هي
 المادة ، هي السرعة ، هي الظعن ، هي الزخرف !

مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجهها الدرهم ، وعنصرها الوجود ،
 أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح ! إلى أومن بما أقول
 يادكتور . وأتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج
 الروح بالمادة ، والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء
 بالزخرف ! تلك ينابيع فكر كامل ومدنية متزنة لم تعرف البشرية
 لها من نظير ، إن أكثر المدينيات تميل إما إلى ناحية الروح وإما
 إلى ناحية المادة .

حضارة واحدة قيل أنها استطاعت في وقت ما هذا المزج بين

الروح والمادة وهذا الاتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة الاغريق . نعم أعود فأرد الى أمة الاغريق اعتبارها ، وأعترف أنى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثراً بكلام « تين » ، فضلت السيل ، « تين » عقل خلاب لكنه عقل . والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحي البدنيات . ماهداني الى الحق الا القلب ... الا طول تأملى فى جهة « البارتينون » . من دماغ ذلك الجواد الذى خلقته يد « فيدياس » فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى إلى بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشئ آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءت ببيئة أخرى ، وتأملت قليلاً فأريت القناع قد كشف . ذكرت أن اصل الاغريق جنسان مختلفان : اليونانيون القادمون من آسيا المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد « يونا » والدوريون الحريون البرابرة الهابطون من الشمال ، اله اليونين : « ديونيزوس » ، وإله الدورين « أبولون » . وها هنا تفسير الاغريق : فى هذا الصراع بين ديونيزوس رمز الروح والقوى الشائعة والنشوة ... وبين أبولون رمز الفردية والشخصية الفارزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة ، وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى ، ديونيزوس إله اسوي فيما يخيل إلى ، تجلب من الهند بالامراء . فعدا فى اليونان ينبوع الموسيقى ، لهذا السبب قدرت إخفاق الفارابى ، ان الموسيقى العربية وليدة عقل واع ، لأن العرب أمة الفردية والوعى والمنطق العقلى والظاهر المحسوس ، ان العرب من عباد أبولون وهم لا يشعرون . ان العرب لا يمكن أن يفهموا ديونيزوس ولا نشوة ديونيزوس . تلك النشوة الدينية الجارفة التى تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى كى تصله مباشرة بالطبيعة . إن أغاني عباد « باكوس » الحماسية فى الغابات ومزامير ال « ساتير » ، شئ بعيد إدراكه على العقلية الفردية ، شعور الانسان فى لحظة انه انقلب مخلوقاً له جسم جواد ورأس رجل ، أو رأس رجل وأرجل ماعز . هذا الاتحاد بين الحيوان والانسان احساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء ، هذا التلاقى بين الأنواع وبين القوى فى مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات الالهية البائدة التى كانت تحكم الارض قبل ظهور الانسان ... مخلوقات لاهى من الاناث ولاهى من الذكور ، لاهى من الحيوان ولاهى من الانسان ، لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت . كذلك « الساتير » فى الميتولوجيا الاغريقية رمز للانسان الأول ، ذلك الانسان الدانى من الحيوان القريب من الآلهة ، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتبقطة

ينبوع القوة الخالقة عند الاغريق كما هى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الالهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وبيريق من ذلك النور الروحي والالهام الذاتى يرى به كتلة الزمن من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لحظة واحدة .

تلك القدرة الخفية هى حاسة بائدة كانت للانسان الأول ، وفقدناها اليوم ، نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها وتتصل بها ، ولم يبق لنا اليوم الا العقل المحدود والمنطق القاصر . وها نحن اليوم فى هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة ! أين ذهب ديونيزوس ؟ وهل يبعث من جديد ؟ وإذا بعث فهل يجد من يعرفه فى هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية ؟

رجل واحد مازال يذكر هذا الاله ويستطيع أن يعرفه اذا ظهر كما عرف غاليلاس أصحاب الكهف !! وهو وحده كذلك الذى يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر ، هذا الغاليلاس العصرى هو : « تاجور » ، إنه يتكلم كثيراً عن ذلك الاتحاد بين الانسان والطبيعة . وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التى تخترق الكون . وعن ذلك الحب بين الانسان والجاد . هذا كلام جميل . لكن هل تراه يشعر بحقيقته ؟ يخيل الى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الاغريق . بل لقد انقضت قبل أن تنقضى دولة الاغريق . انقضت بطغيان منطق سقراط على روح هوميروس . انقضت بطرد ديونيزوس من تراجيديات إيريود (غصبة نيتشه المعروفة) انقضت بظهور پراكسيتيل على فيدياس ، انقضت بغلبة الاحساس العقلى على الاحساس الروحي ، انقضت بانتصار « أبولون » فى النهاية على « ديونيزوس » . وهكذا اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطقت الحضارة الاغريقية الى الأبد . ولم ترث أوروبا منها غير كنوز العقل والمنطق ، وبقيت فى الظلام كنوز ديونيزوس الخفية .

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب فى تطعيم الروح بالمادة ، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوماً ؟ أرجو من الدكتور أن يجيب ، أنت وأصحابك ومدرستك قد فرغتم من تصوير وجه الأدب المصرى ، ولم يبق الا صبغه باللون الخاص ، وطبعه بالروح الخاصة ، فما هو هذا اللون ؟ وما هى هذه الروح ؟ ان ردك على هذا السؤال نور يلقى على طريق الجيل الجديد ؟

(الرسالة) سيجيب الدكتور طه عن هذه الرسالة القيمة فى العدد القادم